الاستعمار الفرنسي و الاهتمام باللّهجات العاميّة العربية خلال القرنين 19 و 20 الميلاديّين

د. فريد حاجي
_ قسم التاريخ_
جامعة الجزائر(2)

تعالج هذه الدّراسة موضوعا متجدّدا ألا وهو الدّعوات المتكرّرة في الوطن العربي مشرقه ومغربه لتشجيع العاميات واعتمادها لغة عالمة والسعي لجعلها بديلا عن اللّغة العربية الفصحى. والمعروف، أنّ هذه المساعي كان قد بدأها المحتلّ الفرنسي قبل وبعد احتلاله للجزائر في محاولة منه إلى الهيمنة الثّقافية وإضعاف العربيّة وعرقلة عمليّة النّهوض بها والتّمكين للفرنكفونيّة المتستّرة وراءها.

والجدير بالإشارة، أنّ مسألة انقراض اللّغات لا يعني ذهاب جهاز اتّصالي، وإنّما يعني انقراض أمّة وضياع ثقافة، ولهذا السّبب نلاحظ انبعاثا كبيرا للهويّات اللّغوية، حيث محاولات كثيرة لمواجهة تحدّي الواحدية اللّغوية التي تبشّر بها العولمة التي لا تعني هيمنة اللّغات الغالبة، وإنّما تعني في النّهاية هيمنة النّموذج الثقافي المختزن في رموز الاتّصال.[1].

لقد سبق للاستشراق الأجنبي بشكل عام، والفرنسي بخاصّة، أن اهتمّ بحقل دراسة العاميّات العربيّة مبكرا، وازداد أكثر البحث في هذا المجال حين عزم الأوروبيون غزو البلاد العربية.[2] ففي، فرنسا على سبيل المثال تمّ إنشاء - مدرسة اللّغات الشرقية الحية بباريس - بغية دراسة لغات وثقافات هذه البلدان، وتوسّعوا في هذا الشّأن بعد تسلّطهم على البلدان العربية وتحكّمهم فيها، فأحدثوا معاهد عليا لدراسة اللّهجات العربية العامية واللّهجات البربريّة لتعليم أُطرهم المختلفة، كما أُلّفت كتب في قواعد هذه اللّهجات، ووُضعت معاجم في مفرداتها، [3].

لذا، نحاول في هذه الدّراسة الوقوف على مرامي المحتل الفرنسي وراء اهتمامه بهذا المجال قبل الغزو وبعده.

أوّلا: الاهتمام بالعربيّة قبل غزو الجزائر :

لم يكن اهتمام الأوروبيّين بتعلّم اللّغة العربية عامّة، والعاميّة بشكل خاص؛ ممّا ظهر في العصر الحديث فقد وجد منذ عهد بعيد.(4) . وقد تجلّى ذلك في إقبال الباحثين على دراسة العاميات العربية واهتمامهم بتدوين ألفاظها ونصوصها. ولا شكّ أنّ لهذه الظّاهرة بواعث وأسبابا وأغراضا وأهدافا؛ دلك إنّ اشتغال الاستعمار وأدواته الاستشراقية بدراسة اللّهجات العربية(5) لم يكن محض اهتمام علمي، ولم يكن بريئًا ولا خالصًا لوجه العلم، بل استدعته تلك العلاقات الدّبلوماسية والتّجارية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانيّة، وبلاد فارس؛ حيث كانت في حاجة إلى متمكّنين من اللّغات الشّرقية، ومنها على وجه الخصوص التركيّة، العربية، والفارسية ليكونوا في خدمة سفارات وقنصليّات فرنسا في هذه البلدان.(6) .

لهذا الغرض، أقدمت فرنسا على إنشاء " مدرسة اللّغات الشرقيّة الحيّة" والتي تعود فكرة إنشائها إلى "لويس لانجلس"(7) الذي كان يقوم بتدريس العربية بمعيّة "كوسين دي بارسفال"(8) والفارسية مع "بيير روفان" (9) وذلك في المدرسة الملكيّة. وقد حدّد "لانجليس" الغاية من إنشاء هذه المؤسّسة في العام 1790م بقوله:" إنّ لتعلّم اللغات الشرقيّة أهمّية تكمن في توسيع التّجارة، وتقدّم الآداب والعلوم" (10) .

وفي تقرير آخر، دعا إلى ضرورة تعلّم اللغات العصرية"الحيّة" وليس اللغات القديمة"الميّتة" بعبارة أخرى، اللغات ذات الفائدة السياسية والاقتصادية، بمعنى تكوين دبلوماسيين، قناصلة، مترجمين، متوجّهين إلى الحاضر وليس فقط فقهاء في الماضي(11) .كذلك، يمكن استشفاف الغاية من هذه المؤسّسة الوليدة ممّا جاء في مرسوم إعادة تنظيمها العام 1869م، والذي جاء فيه: " إنّ هدف الدروس، هو تعليم الطلبة القراءة والكتابة وتكلّم اللغات، وتعليمهم الجغرافيا السياسية والاقتصادية للبلدان الناطقة بهذه اللغات"(12) .

وقد خصّص مرسوم إنشائها في 1795/03/30م كرسيّا واحدا للعربية الفصحى والعامية برئاسة "دو ساسي"(13) وحين رحل هذا الأخير ، خلفه "ميشال صبّاغ" (14) الذي كان يقوم بتدريس العاميّة منذ العام 1803ليقوم بتقديم دروس في الكتابة والنّطق والمحادثة العربية. وفي العام 1810م، أضيف كرسيّ ثان "للعربية

العامية" المشرقية تارة، والمغاربية تارة أخرى، ومنها اللهجة الجزائرية التي يدرّسها كلاّ من "شوربينو" (15) و"هوداس" (16) . أمّا الفصحى فكانت من نصيب " دوسلان".(17) وفي العام 1909، أُنشئ كرسي ثالث تحت مسمّى " العربية المغاربيّة". وإذا كان الكرسي الأوّل الذي تمّ إنشاؤه في العام 1820م تحت مسمّى " الفصحى والعامية" فإنّه حمل اسم " العربيّة المكتوبة" في العام 1832م، ليتوقّف في العام 1867م بعد وفاة المشرف عليه وهو "جوزيف رينو" Reinaud (18) .وقد أعاد فتحه وزير الحرب في العام 1875م وذلك لحاجته إلى مترجمين في الجزائر، وكلّف "ديرانبورج"(19) بتقديم دروس في العربية المكتوبة، وإعادته بشكل رسميّ ابتداء من العام 1879م.(20) .

وبالموازاة مع ذلك، اجتهد القيّمون على تدريس العربيّة العاميّة من أساتذة مدرسة اللّغات الشرقية في إصدار نحو 24 كتابا، محاولين فيها تقديم وصف علميّ للعربية، والعمل على جعلها في متناول الطّلبة، وهي ذات طبيعة تعلّمية أساسا، وتخصّ :

القواعد: وعددها 6 كتب؛

مختارات أدبيّة قديمة: وعددها 9 كتب؛

معاجم: عددها 5.

كتب: وعددها 4.

ومن بين هذه الكتب، كتاب في قواعد العربية من تأليف " دو ساسي" تمّ تأليفه في العام 1805م، ولم ينشر إلاّ في العام 1810م. أمّا الكتاب الثاني فكان لـ " كوسين" بعنوان "قواعد العربية العاميّة" نشر في العام 1821م. ومن بين ما جاء في مقدّمة كتابه ما يلي(21) : «(...) إنّ ارتياد وتنوّع علاقاتنا مع البلاد النّاطقة بالعربية يعطي أهمّية خاصّة لهذه اللغة، وإنّ المعرفة العمليّة لها تمنح مزايا ثمينة للأشخاص الذين تتطلّب مهامهم الدبلوماسية والمضاربة التجارية في البلدان الإسلامية، والرّغبة في دراسة طبائع وأفكار الشعوب وإثراء الجغرافيا أو تنوير التاريخ باكتشافات جديدة (...) ويأتي أيضا قصد تسهيل للمترجم ، والمفاوض، والمسافر التّواصل الشفهي والكتابي مع العرب، وتقليص قدر الإمكان المدّة الزمنّيّة التي يتطلّبها تعلّم الأجنبي

الذي ينتقل إلى الشرق لدراسة العربيّة، وهو مضطرّ لتحمّل ذلك ، ولا يختلف الأمر، حتّى وإن كان تعلّم هذه اللغة العالمة في أوروبا نفسها، وذلك هو الهدف الذي سطّرته لهذا الكتاب.

مهما يكن، إذا كانت نوايا هؤلاء كانت لمصلحة اقتصاديّة وتجاريّة في هذه المرحلة، فإنّ أهدافهم بعد غزو البلاد العربيّة بدءا بمصر، ثمّ الجزائر قد أخذت منحى آخر، وهو ما نحاول الوقوف عليه:

ثانيا: الاهتمام بالعربيّة بعد الغزو

من المأثور عن شارل ديغول قوله: "لقد صنعت لنا اللّغة الفرنسية ما لم تصنعه الجيوش". فاللّغات لا يمكنها أن تعلن حروبا فيما بينها، ولكنها أدوات طيّعة بيد الذين يشعلون الحروب، فيتوسّلون بها إلى الحفر في الأعماق البعيدة للنزاعات، والمنتصرون في الحروب هم الأسياد الجدد الذين يرومون فرض لغة واحدة.

إنّ الصّراع حول اللّغة ليس صراعا محايدا، والحديث عن استعمال لغة بدلا من أخرى، لا يكون محكوما بالاعتبار اللّساني أو اللّغوي أو التّربوي، وإنّما هو يتعدّى ذلك بكثير، إذ يتأطّر بالمقاصد السياسية والحضارية الكبرى، ويمتد ليعبّر عن جوهر الصّراع والتوتر الحضاري الراهن. وإذا كان الاستعمار الفرنسى يعادل الاستعمار البريطاني في استغلال الشّعوب والهيمنة على مقدّراتها، فإنّ ما يميّز الاستعمار الفرنسي هو شراسته في الاختراق الثقافي والتشظّي اللّغوي، حيث استطاع أن يكسب عددا من الأتباع الذين يدافعون عن الحضارة والثّقافة والمصالح الفرنسيّة في الجزائر ، أكثر ممّا كان يتمنّى إبّان فترة تحكّمه العسكري.(22) .

ومنذ دخول المحتل الفرنسي إلى الجزائر، انقلب الوضع اللّغوي رأسا على عقب، بفرض اللّغة الفرنسية بالقوّة ، وسَلَبَ من العربية دورها الأساس الذي كانت تقوم به في المجالات الرّسمية كلّها، ولم يبق إلا الحيّز الديني وحيّز ضئيل جدا من المجال التّعليمي من خلال المدارس الدينية(23).

تجليّات انشغال المحتل الفرنسي بالمسألة اللّغويّة:

حين أصبح المحتل بين ظهراني المجتمع، كانت اللّغة إحدى الإشكالات العويصة التي واجهته، ذلك أنّ الجنرال "بيرتزن" بصفته حاكما عامّا للجزائر (مارس1831- ديسمبر1831) راسل وزير الحرب آنذاك الماريشال"سولت" بتاريخ 1831/07/25، قائلا:«(...) إنّ جهلنا للّغة والاختلاف في الدّين، كانا من أكبر العوائق التي لا يمكننا تجاوزها (24) . إنّ المتأمّل في كلام "بيرتزن" يراه وجيها في ظاهره، لكنّ التّصريحات المتوالية لقادة الاحتلال، من ساسة وعسكريّين، بل ومنظّرين بشأن هذه الإشكاليّة، لا تنمّ عن هاجس التّواصل مع الأهالي فحسب، بل، كان الهاجس الأساس، هو ما وراء اللّغة (25) وهو ما أفصح عنه "بروسون"(26) في رسالته إلى المفتّش العام للتّعليم، إذ من بين ما ورد فيها، قوله:«(...) إنّ مهمّة فرنسا في الجزائر تتوقّف على دراسة اللّغة العربيّة والتوسّع فيها، من أجل التعرّف على الأهالي والاتّصال بهم، كما أنّ الاستعمار نفسه (أي الاستيطان واستغلال الأرض) يتوقّف عليها. ولا يكفي الاعتماد على المترجمين». ثمّ أكّد على «(...) ضرورة دراسة اللّهجات أيضا كلّما توسّع الاحتلال في الجزائر» (بل أنّ) الإدارة سوف لا تقبل مستقبلا إلاّ من يعرف العربيّة والفرنسية». من جهته، يقول الدوق"أومال" «(...) إنّ معرفة العربيّة ضروريّة لتقرّبنا من الجزائريّين، وإنّ الجيش الفرنسي الذي عبر البيبان كان يعرفها، وهو ما مكّنه من العبور، ولم يكن الجيش في حاجة إلى مترجمين». ويقول "ج. بوجولا" في هذا الصّدد :«(...) إنّ الأوربّيين كانوا في العام 1844م، يتعلّمون العربية لتكون علاقتهم مع الأهالي أكيدة ومُثمرة (...) وأنّ تعلّمها شرط أساسيّ لتسريب الأفكار والعادات والثّقافة الفرنسيّة إلى الأهالي مع منح رجال الدّين حريّة تعلّمها كي يتّصلوا بالأهالي، ويبثّوا الأفكار النّصرانية عن طريقها»(27).

والسؤال الملحّ هنا هو: لماذا تحوّل اهتمام المحتلّ من مجرّد الرّغبة في التمكّن من أداة للتّواصل، إلى توظيفها كسياسة ثقافيّة؟

تُشير مختلف الدّراسات إلى أنّ المحتلّ بعد غزوه للجزائر، أولى اهتماما بالمشهد اللّغوي في الجزائر، حيث عكف على دراسة العربيّة الفصحى ولهجاتها، والبربريّة

وتفرّعاتها، وهو ما يستدعي البحث في خلفيّات انكبابه على ذلك من النّاحية السياسيّة وليس الألسُنيّة.

قد تكون كلمة "طوكفيل" مدخلا لتناول قضيّة اللّغة في سياسة المحتلّ، فمن خلالها تتّضح ملامح هذه السياسة منذ السّنوات الأولى للاحتلال، إذ كتب قائلا:«(...) إنّه لم تكن لنا أيّة أفكار واضحة عن المنطقة، سواء فيما يخصّ الأعراق التي تسكنها أو نواميسها الاجتماعيّة، نجهل أبسط المعاني لأيّ كلمة من اللّغات التي يتحدّثونها (...) ومع ذلك، لم يمنعنا هذا من الانتصار (...)لكنّنا لم نلبث بعد المعركة أن أدركنا أنّه لا يكفي هزم أمّة للتّمكن من حُكمها (28). ومن ثمّ، ما المطلوب بعد هزيمة السكّان؟

لعلّ ما يُميط اللّثام أكثر عن خلفيّة المحتلّ وراء تعلّم اللّغة العربية، هي كلمة الافتتاح التي ألقاها"برينييه" بهذه المناسبة، إذ من بين ما ورد فيها قوله:«(...) إنّ الدّراسة الجادّة للغة العربية فوق أرض تُستعمل فيها مشافهة، بإمكانها أن تمنح بلادنا امتيازات جمّة بجعل العلاقات مع الأهالي تطّرد وتتعاظم، كما يمكنها أن تحملنا على معرفة وتقدير ذهنيّة الشّعوب التي لسنا مطالبين بتسييرها فحسب، بل كذلك على تلقينها شيئا فشيئا أفكار حضارتنا الواسعة، بشكل أفضل». ومن ثمّ، لم يكن المحتلّ يهتمّ باللّغة من أجل التّواصل وحسب، بل لما لها من علاقة وثيقة بثقافة المجتمع، من منطلق أنّ الفرد يتأثّر باللّغة التي يتحدّث ويتواصل بها أبلغ تأثير، ويمتدّ هذا التأثير ليشمل تفكيره وتصوّراته وعقائده، ومشاعره وعواطفه، وسلوكه وإرادته وجميع تصرّفاته، وهو الدور الذي أبرزه "برينييه" في كلمته، حين قال:«(...) إنّ دراسة آدابها (...) ستؤدّي بنا إلى معرفة خبايا عبقريتها وطرافة عقلها (...) وكذا كتبها في العلم والتّاريخ والقضاء والدّين (...) بواسطة هذه الدّراسة (...) سيتمّ الارتقاء إلى مصدر أفكارها ومعتقداتها وعاداتها (...) وحين نقف على ما يشكّل أساس تربية الشّباب، سنستطيع أن نرفع تدريجيّا هذه التّربية إلى مصاف تعليمنا». وقد أوحى في كلمته إلى الحضور، أنّه لا يرجو منهم تعلّم اللّغة العربية لأغراض تثقيفيّة، وإنّما تحسيسهم بضرورة «(...) تحاشي ارتكاب الأخطاء الفاحشة المضرّة بمكانتنا ومصالحنا على حدّ سواء (...) تُرى أنّى لنا بلوغ المرامي البعيدة دون بذل الجهد والعمل؟ (29). ومن

هنا، يأتي حثّ الفرنسيّين على تعلّم العربية حسب "هـ.ماسي" من منطلق النّظرة إليها كـ «(...) وسيلة للتّغلغل السياسي، وليست عنصرا من الثّقافة الفكرية لهم (30). ومن ثمّ، ما شأنهم وهذه اللّغة التي قادت "الأهلي" - حسب زعمهم- إلى ما يُعانيه من تخلّف، وما يتّميّز به من "تعصّب" جرّاء عقيدته التيّ تعدّ هذه اللّغة "المنحطّة" وعاءها.

إنّ ما كان يهمّ المحتلّ من تعلّم العربية، عامية أو فصحى، هو الوقوف على دور العامل الدّيني كدافع إلى مقاومة الاحتلال وكحصن منيع للمجتمع من جهة، وفهم العلاقة بين مرجعيّته كثقافة واللّغة، ومدى تأثيرهما على بُنيته الذّهنية والفكريّة، وذلك ما يتجلّى في قول "هـ. ماسي": «(...) كلّما أبدت مجموعة من الأهالي مقاومتها، إلاّ وتّسلّط عليها الأضواء لتكون محلّ سلسلة من الدراسات »(31) .

ما يُستشفّ من مقدّمة كتاب "برينييه" المُعنوَن بـ"المبادئ الأساسية للغة العربية- نظريا وتطبيقيا- حيث ورد فيها:«(...) لسنا في حاجة هنا إلى التوسّع في ذكر الفائدة العمَليّة والعلميّة للغة العربية في الوقت الرّاهن (...) وكلّنا يعلم أنّها ستكون الأداة الضّرورية لعلاقاتنا مع الأهالي ولمدّة طويلة (...) وكذلك الوسيلة الأكثر فاعليّة لممارسة فعلنا الإداري والحضاري على الجماهير». ويضيف في خاتمة المقدّمة قائلا: (...) أهدي هذا الكتاب إلى الطلبة الذين لهم هدف عَمَليّ، وإيجابي، خصوصا لطلبة مؤسّسة لها مستقبل، ألا وهي مدرسة ترشيح المعلّمين التي تعدّ لهم وسيلة للقيام بالمهمّة النّبيلة التي تمّ تسطيرها لأرضنا الإفريقية»(32) .

أشرنا فيما سبق إلى إنّ المحتلّ سعى من وراء التمكّن من اللغة العربية في أربعينات وخمسينيات القرن 19م، إلى الغوص في كُنه ثقافة المجتمع ذات الصّلة الوثيقة بالدّين الذي يحول دون التّقارب بين "الشعبين" الفرنسي والجزائري، كما رأى أنّ التخلّص من هذا الحاجز/العائق، يمرّ حتما عبر القضاء أو تهميش أداته وهي اللّغة. وإذا كانت الغاية هنا واضحة ومفهومة، فإنّ ما يستوقف الدّارس، هو ذلك الاهتمام الذي أولاه المحتلّ - والقوى الاستعمارية الأخرى- لموضوع اللّهجات(العاميّات) العربيّة والبربريّة، وهو ما يدفعنا إلى طرح تساؤلات من قبيل: هل كان ذلك فضولا علميّا ؟ هل كان بالفعل حماية لها من الاندثار، أم توظيفها لخدمة قضية الاستعمار؟

من الشّائع لدى الكثير، أنّ العقل الغربي، والفرنسي بخاصّة موسوم بحبّه لـ "الفضول العلمي" والميل إلى التّرف الفكري، وما كتاباته عن تقاليد الجزائر وأعرافها في المدن والقرى، وعن الدّين وكيفيّة ممارسته لدى الجزائريّين، وعن الزّوايا والطّرق الصوفيّة والشّيوخ وتأثير ذلك في عقليّة الجزائريّين، وعن الحرف والمهن التقليدية وبعض أنواع التّجارة في المدن، وأساليب الزّراعة والنّشاط الفلاحي في البوادي إلى غير ذلك من المواضيع سوى مظهرا لهذه السّمة!؟. فهل تُعدّ تلك الأبحاث في الإتنولوجيا والأنتربولوجيا سواء حول عنصر البربر أو العرب، وما يتعلق بهما من خصائص ألسُنيّة وثقافية وجها من أوجه هذا الفضول والتّرف؟

لقد بادر المحتلّ إلى إعداد معجم فرنسي/بربري في العام 1844م حيث ورد في صفحة التّنبيه ما يلي:«(...) تبعا لقرار السيد الماريشال وزير الحرب (سولت) المؤرّخ في 22/أفريل/1842، تمّ تشكيل لجنة كُلّفت بتحرير معجم بربري/فرنسي مع قواعد...». وفي هذا التّنبيه تمّ ذكر الأعضاء المكلفين بإنجاز هذا العمل وهم:« أربعة فرنسيين، وآخر جزائري هو " سيدي أحمد بن الحاج علي إمام بجاية...». وبشأن خاصية اللّغة البربريّة، نقرأ في التنبيه:«(...) إنّ الأبحاث التي قامت بها اللجنة أفضت إلى الإقرار بأنّ اللّغة البربريّة رغم خاصّيتها الثّابتة مُمثّلة في الوحدة التي اكتشفناها في كلّ مبادئها الأساسية، عرفت تغيّرات وتمازجات بفعل تأثيرات الشعوب التي تعاقبت على شمال إفريقيا جرّاء الغزوات، ولم يكن بالإمكان تفادي هذا التأثير، ممّا أعطى الفرصة لتشكّل عدّة لهجات متميّزة، وذات فوارق جدّ جسيمة تستدعي أن تُدرس كلّ منها على حدة وبعناية» (33)

لقد وجد المحتلّ في التّشكيك في هويّة المجتمع الجزائري من خلال فكرة "الأثنية" التي استخلصها من المشهد اللّغوي في الجزائر دعامة "علمية" لسياسته الثقافيّة التي أراد من خلالها التأسيس لهويّة جديدة للمجتمع "المتعدّد" الأعراق. وقد أكّد على ذلك "هنري فورنيل" حين كتب قائلا: «(...) منذ 1845م إلى 1846م كانت لنا اتّصالات يومية مع أهالي الجزائر، واندهشنا للفوارق العديدة التي يتّسم بها العرقان، البربري والعربي (...) إنّ التّفكير في مُعطيات هذا المشكل هو ما قادني إلى استنتاج أنّه منذ 1830م ونحن نسير في مسار خاطئ، كوننا انشغلنا كثيرا بالعرب. وتجاهلنا

بغير حقّ الأهالي الحقيقيين وهم "البربر" ذلك العرق البارز، المُجدّ، غير المتعصّب، والمتمسّك بالأرض »(34) .

وفي المضمار نفسه، فإنّ "أ.برنارد" أحد المهتمّين بدراسة نفسيّة الأهالي، تحدّث عن الأساس الذي انبنت عليه السياسة الثقافية، وأبعاد ما سُمّي بـ "الاستكشاف العلمي في الجزائر" حين كتب قائلا:«(...) إنّ مُنظّري الاستعمار كانوا مع بدايات الغزو يعتقدون أنّ الجزائر مأهولة بالعنصر العربي فقط، وذلك نظرا لما لاحظوه من هيمنة الإسلام واللّغة العربية على السكّان، لكنّهم عندما اكتشفوا العنصر البربري حاولوا أن يبنوا سياستهم كلّها على أساس التّمييز بين العنصر البربري المتميّز بقابليته للاندماج والعنصر العربي المتعصب..». ثمّ لفت نَظَرَ أقرانه من منظّري الاحتلال إلى خلطهم بين مسألة العرق بالمفهوم البيولوجي ومسألة اللّغة والحضارة، قائلا: «(...) إنّه، إذا كان الدّم البربري يميل تدريجيّا إلى محو آثار الغزاة المشارقة، فإنّ اللّغة العربيّة والدّين الإسلامي ما زالا يحقّقان فتوحات كبيرة لدى البربر »(35) .

وفي الثّلاثينات من القرن العشرين، وتحديدا في العام 1936 ألحّ رئيس أكاديمية الجزائر في رسالته إلى الحاكم العام "جورج لوبو"(1935- 1940) بتاريخ 1936/02/01 بعد استشارة هذا الأخير له فيما يخصّ تعليم العربية الفصحى والعامية، ومسائل أخرى خاصّة بالتعليم فجاء ردّه كالآتي: «(...) فيما يخص تعليم اللّغة العربية في المدارس الأوروبية طلبت منّي تدريسها في جميع هذه المدارس، أذكّرك بأنّها كانت هناك محاولة صادقة في هذا الشأن في العام 1906 لكنّها لم تُفض إلى أيّة نتيجة، ومن ثمّ، فمحاولة من هذا القبيل لا تُجدي نفعا، وذلك لمقاومة العائلات الأوروبية، ناهيك عن صعوبة وجود من يقوم بذلك(...)إضافة إلى ذلك، فتعليم العامية إجباري في المدارس الابتدائية العليا ومدارس ترشيح المعلمين، وهي عمليّة تلقى صعوبات(...) إنّ اللّجنة تطالب بتدريس العربية في كل المدارس الابتدائية للأهالي. ومن ثمّ عن أية عربية نتحدّث؟ العامّية يتقنها كلّ التلاميذ المعرّبين، وأنا على استعداد على تعليم الأبجدية للبربر، لكن لا أرى ضرورة في تعريبهم، لأنّ وجودنا هنا لم يكن لخدمة هكذا هدف(...) بالنّسبة للفصحى، فهي تُدرّس في مدارس المدن الكبرى(...) إنّ اللّجنة تطالب في نفس الوقت بإيجاد وضع قانوني وبرامج تعليم للأهالي ينحو نحو

التّقارب أكثر فأكثر من وضع برامج تعليم المدارس الأوروبية (...) لكن أنّى للأهالي الذين تتجاذبهم إرادة عميقة في الذّوبان في حضارتنا ونداءات قادمة من بلدان إسلامية مجاورة (36)

إنّ هذه الأهداف نستشفّها أيضا من عديد التصريحات الصّادرة من مختلف الشخصيات الاستعمارية، فعلى سبيل المثال، يقول "أونيزيم روكلي" مبتكر مصطلح "الفرنكوفونية (37): « (...)فيما يخصّ إفريقيا الشّمالية، هناك لهجات قبائلية ستموت سريعا (...) ولن يكون أمام أحفادنا أو أبنائهم سوى إفريقيا التي ستكون فيها اللّغة الفرنسية هي اللغة التي تستعملها غالبية القبائل والحواضر السكنيّة باستثناء الأقاليم التي تملك تقاليد الكتابة (...) وقد تكون العربيّة هي اللغة الوحيدة التي ستعيش سنوات» (38). ويقول الجنرال "ليوطي":« (...) من النّاحية اللّغوية علينا أن نعمل مباشرة على الانتقال من البربرية إلى الفرنسية (...) ليس علينا أن نُعلّم العربية للسكّان الذين امتنعوا دائما عن تعلّمها، إنّ العربية عامل من عوامل نشر الإسلام؛ لأنّ هذه اللّغة يتمّ تعلّمها بواسطة القرآن، بينما تقتضي مصلحتنا أن نُطوّر البربر خارج نطاق الإسلام» (39) .كذلك، يقول المستشرق الفرنسي "ج. دومومبين" فيقول بشأنها: «(...) إنّ الفرنسيّة - وليست البربريّة- هي التي يجب أن تحلّ مكان العربية كلغة مشتركة وكلغة حضارة (...) وقوام السياسة البربرية هو العزل الاصطناعي للبربر عن العرب، والمثابرة في تقريبهم منّا من خلال التّقاليد» '(40).

لذا، كان التّخطيط اللّغوي المنتهج من قبل المحتلّ، يُراعي على الدّوام إضعافَ العربية الفصحى في المجتمع قصد تآكلها، وذلك عبر عمليّة مزدوجة تتمثّل في إقصائها بيداغوجيّا، والحطّ من شأن الدّين ثقافيا، وبمثل هذه السياسة المنهجة- في اعتقاده- يشرع المجتمع في الانسلال التّدريجي من إطاره الحضاري. وقد رأى، أنّ الوسيلة الكفيلة بإقصاء العربية الفصحى والدّفع بها إلى التّآكل، هو تثمين العربية العاميّة، وذلك بجعلها لغة تدريس، وبها صاغ الكتب المدرسيّة الموجّهة لمختلف المراحل التّعليمية. ولكي يقلّل من النّظرة المقدّسة للغة العربية الفصحى في المخيال الجمعي لما لها من ارتباط وثيق بالإسلام، عمد إلى اختيار محتويات معرفية من الثّقافة الشعبية

كنصوص ضمّنها في الكتب المدرسية بغرض فلكلرة الثّقافة الإسلامية، وحتى لا يشعر المتمدرس أنّ ما يتعلّمه بعيدا عمّا ألفه في محيطه الأُسَري ووسطه.

مهما يكن، فهناك العشرات من الكتب التي تمّ استصدارها لخدمة هذا الغرض ، وهو ما يدعونا إلى ذكر البعض منها:

- ج.ج. مارسال: **التعبير الفرنسي/العربي**، أو العربي الفرنسي للهجة العامية للجزائر، تونس، المغرب، المستخدم في الجيش الفرنسي، ط2، 1830.

-J.J. Marcel : **Vocabulaire Français Arabe du Dialecte Vulgaire D'Alger, de Tunis, et de Maroc à l'Usage des Militaires Français**, 2eme éd., 1830.

- تيودور رولاند دو بوسي: **اللّسان العاصمي أو المعجم الفرنسي/العربي، والعربي/الفرنسي**، الجزائر ، براشي وباستيد ، للطباعة والتّأليف، 1838.

-T. Roland de Bussy : **L'Idiome D'Alger Ou Dictionnaires Français – Arabe ou Arabe- Français, Alger, Brachet et Bastide, libraires-éditeurs, place du gouvernement. 1838.**

- معجم فرنسي/بربري، اللهجة المكتوبة والمنطوقة عند القبائل في مقاطعة الجزائر، كتاب تمّ تأليفه بأمر من وزير الحرب، باريس، المطبعة الملكيّة، 1844.

Dictionnaire Français Berbère, dialecte écrit et parlé par les kabailes de la division d'Alger, ouvrage composé par ordre de M. Le Ministre de la guerre, Paris, imp, Royale,M DCCC XLIV (1844)

- ج. هونورات دولابورت: مبادئ اللّسان العربي، ط3، الجزائر، مطبعة الإخوة دورو، باب عزّون، 1845.

-J. Honorat Delaporte : **Principes de L'Idiome Arabe 3eme éd., lger, Duros Frères, Librairies, rue Bab-Azoun, 1845.**

- ج.ل. بريئييه: **دروس تطبيقيّة ونظريّة في اللغة العربية**، ط2، الجزائر، أدولف جوردان، 1846.

- L.J. Bresnier : **Cours pratique et théorique de Langue Arabe, 2eme éd, Alger, Typographie et lithographie, Adolphe Jourdan, 1846**

- ألكسندر بيلمار: **قواعد العربية(لسان الجزائر) المستخدم في الجيش، والموظّفين المدنيّين في الجزائر**، الجزائر، مطبعة الإخوة دورو، باب عزّون، 1850.

-Alexandre Bellemare : **Grammaire Arabe(Idiome D'Algérie) à l'Usage de L'Armée et des employés civiles de L'Algérie, Alger, Duros Frères, Librairies, rue Bab-Azoun, 1850.**

- أ.ل. بوليه: **معجم فرنسي/عربي(اللّسان المستعمل في الجزائر)** كتاب تمّ تأليفه ومراجعته من عديد العلماء من الأهالي، باريس، مطبعة هاشيت، 1850.

- AL. Paulmier : **Dictionnaire Français Arabe- Idiome parlé en Algérie, ouvrage composé à Alger et vérifié par plusieurs savants indigènes, paris, librairie de L, Hachette et Cie, 1850.**

- ج. دلفين، **جامع اللطايف وكنز الخرايف**" ويتضمّن ترجمة نصوص من العربية إلى ما يقابلها باللّغة الفرنسية، وعنوانه بالفرنسية هو:

G., Delphin : **Recueil de textes pour l'étude de L'Arabe Parlé, A Jourdan, Alger, 1891**

- هوداس و دلفين، **الكتاب المُعرِب عن كيفية مكاتيب المغرب** " عنوانه بالفرنسية:

O. Houdas, et G. Delphin : **Recueil de lettres arabe manuscrites, 2° éd, A Jourdan, Alger, 1891.**

- ج. ديسبارمي، **كتاب الطريق المستقيمة لتعليم لغة العامّة**، ط2، مطبعة أ. جوردان، الجزائر، 1907. وهو موجّه لأقسام السنة الخامسة ابتدائي وعنوانه:

Arabe dialectal d'après la méthode directe, 2° éd, A. Jourdan, Alger, 1907

وهناك من الجزائريّين من ساهم في تأليف هذا النّوع من المعاجم والكتب المدرسيّة باللهجة العامية، نذكر منهم على سبيل المثال:

- بلقاسم بن سديرة وشارل سديرة: **دروس متدرّجة لرسائل عربية مخطوطة**، عنوانه بالفرنسية:

Bel Kassem ben Sedira: **Cours gradué de lettres arabes manuscrites**, A Jourdan, Alger, 1893 .

- محمد بن عبد الرحمن: **الفُلكُ المشحون بالمُعرَب والملحون**، ج2، مطبعة أ. جوردان، 1906. وهذا الكتاب موجّه لأقسام السنة الرابعة والثالثة من التعليم المتوسط. وعنوانه بالفرنسية:

Enseignement de l'Arabe parlé & de l'Arabe régulier, d'après la méthode directe, A.Jourdan, Alger, 1906.

- محمد بن عبد الرحمن، **الفلك المشحون بالمعرب والملحون**،ج3، مطبعة أ. جوردان، 1906. وهذا الجزء موجّه لتلاميذ السنة الأولى ولى والثّانية ثانوي وقسم الفلسفة. وعنوانه بالفرنسية:

Enseignement de l'Arabe parlé & de l'Arabe régulier, d'après la méthode directe, A Jourdan, Alger, 1906

- الصوالح محمد ولد معمّر: **معين المعرّب المستخدم في مدارس التجار، الصناعيّين، ورجال الأعمال**، ط2، الجزائر، أدولف جوردان، 1903.

Soualah Mohammed : **L'Auxiliaire de L'Arabisant**- à L'Usage des écoles des commerçants, des Industriels et des hommes d'Affaires, 2 eme éd, Alger, Typographie et lithographie, Adolphe Jourdan, 1903.

- الصوالح محمد ولد معمّر: **القسم المرتفع للقارئ المنتفع باللغة الدارجة ومن أفواه المسلمين خارجة في بلاد الجزائر الفارجة** وعنوانه بالفرنسية:

Soualah Mohammed: Cours supérieur d'Arabe parlé, d'après la méthode directe A.Jourdan, Alger, 1913.

- الصوالح محمد ولد معمّر: **كتاب البادي في قراية العربية الملحونة في الجزائرية للنصارى**، ط7، مطبعة، تيبو- ليطو وجول كاربونال، الجزائر، 1937 . وهو كتاب خاصّ بتلاميذ المدارس الأدبية والتجارية والفلاحية. وعنوانه بالفرنسية :

Soualah Mohammed: **Cours élémentaire d'Arabe Parlé**, impr. la Typo Litho et jules Carbonel Réunies Editeur,1937.

هذه بعض النّماذج من الكتب المنشورة بالعربية العاميّة والفرنسية التي وقفنا عليها والتي كانت معتمدة في المؤسّسات التّعليمية. وإذا حاولنا تلخيص مضامينها، فهي تتمحور حول مواضيع تتناول تربيّة الأولاد والزّواج وحالة المرأة والعرب الرحّالة والحُضر والقبايل وبني مزاب والعبيد وذكر أصول هذه الشّرائح، وحكايات وقصص ومحاجيات وأمثال وغناء، وفصل في حفظ الصّحة. مهما يكن، فإنّ "مدخلات" هذه المعاجم والكتب، هي التي تكتشف عن "المخرجات" المتمثّلة في "ملمح" الطّفل الجزائري "مواطن الغد" في مشروع المجتمع الذي يسعى المحتلّ إلى تحقيقه في الجزائر. وإذا كان "رينيه باصي" يرى «(...) إنّ هذه القناعة العامّة ترجع إلى التّقرير الذي كتبه "شارل سولفى" العام 1846م، والذي أوصى فيه بضرورة تعليم العربية الدّارجة لتوفير المترجمين الإداريّين والاحتياطيين لدفع فكرة "التقدّم" ودمج الأهالي إذا أمكن»(41) فما حاجة المحتلّ في البحث عن الأصول اللّغويّة والعرقيّة للسكّان، وفي مدى تأثير لهجة ما على ما جاورها من جهة، وفي كيفيّة تنقّل القبائل عبر العصور واستيطانها جهات عديدة؟ .

إنّ هذا التوجّه، ظهر جليّا أثناء انعقاد "المؤتمر العالمي للاستعمار" بباريس ما بين 07/30 إلى 1889/08/03م، والذي حضره مُقرّري السياسات اللّغوية في تلك الفترة وأبرزهم "غ. لوبون" إذ يقول: «(...) أنّ التعليم في الجزائر لم يُفض إلى فرنسة المسلمين الجزائريين، بل أنّ التّمادي في التّربية على النّمط الفرنسي قد تجعلهم أكثر عدائية

للأوروبّيين. بل سيُبدون نوعا من اللاّمبالاة والاحتقار تجاههم (...) بعبارة أخرى، فالتّربية التي سنمنحها للعرب قد تخلق لديهم الرّغبة في الاستقلال (...) وستكون صرختهم "الجزائر للعرب"» (42)

مهما يكن، فقد خلُص المؤتمر إلى جملة من التّوصيات، تمّ تلخيصها في الآتي:

- من مصلحة الشّعوب المستعمِرة نشر لغتها المكتوبة والشّفهية؛
- في حالة وجود لغة للأهالي شفهيّة، من المستحسن استعمالها كي تؤدّي تدريجيّا إلى استعمال اللّغة "الوطنية" أي لغة المستعمر؛
- تعليم اللّغة الوطنية (الفرنسية طبعا) يجب أن يتخلّلها تعليم المبادئ العامّة للأخلاق؛
- يجب أن يتضمّن تعليم الأهالي تعلّم حرفة يدويّة.(43)

وعليه، فإنّ سياسة المحتلّ في المجال اللّغوي تميّزت بتناقضات صارخة، فعلى سبيل المثال أنّ فرنسا نفسها بدأت بالتخلُّص من اللّهجات واللّغات المحليّة الكثيرة منذ العام 1539م عندما وافق الملكُ "فرانسوا الأوّل" على القرار المعروف باسم (مرسوم فيلر كوطري:L'Ordonnance de Villers-Cotterèt) القاضي بكتابة العُقود والوثائق القضائية بلهجة باريس وما حولها (L'ile de France) التي أصبحت فيما بعد هي اللّغة الرسمية، إلى أن جاءت الثّورة الفرنسية في القرن 18م، فخَطَت الدّولةُ خطوة أخرى بأن أصدرت عن مجلس الثورة أمراً حاسما بمنع استعمال أيّ لهجة أو لغة أخرى غير هذه اللّغة الجديدة التي أصبحت لغة رسمية للبلاد في كلّ الأمور الإداريّة وفي تعميم التّعليم، ومن أجل ذلك خاضت حربا ضاريّة لتوحيد لغة التعليم والإدارة على حساب اللّهجات واللّغات المحلّية الأخرى التي بلغ عددها العام 1794م - حسب تقرير الرّاهب جريجوار- ثلاثين لغة ولهجة إقليمية ومحلّية من بينها: البرُوطونية والأوكسيطانية والباسكية والكورسيكية والقَطلانية والفلامينكية، والبيكاردية، والبروفنصالية) (44).

ومنذ ولادة النّزعة الوطنية اختارت الثّورة الفرنسية التعدّد اللّغوي في البداية، في العام 1870، إلا أنّها سرعان ما تراجعت عن هذا الموقف لصالح لغة وطنية موحّدة.

ولكي تحقّق الجمهورية الثّالثة هذا التوحيد اللّغوي وليكون متماهيا مع الوعي الوطني الجديد، ذهبت إلى حدّ تصفيّة اللّهجات الجهويّة، حيث قام "ج. فيري"(1832-1893م) الذي كان رئيسا للوزراء ووزيرا للتّعليم في فرنسا، بالخطوة الثالثة التي اعتُبرت من أهمّ مُنجزاته، حين أصدر في العام1881م قرارا بتعميم التّعليم وإجباريَّته ومَجّانيته وعَلمانيته. ولم يكن هذا مُمكنا إلا بتعميم اللغة الرَّسمية للبلاد على أنف بقيّة اللّهجات الأخرى (45).

من جهة أخرى، في الوقت الذي ارتقت فيه اللّغات الأوروبية بطريقة نهائيّة إلى مرتبة المكتوب ما بين القرنين 18 و19م، عمل علماء الاجتماع الأوروبيّين بمكر على البرهنة على تخلّف اللّغات المكتوبة في البلاد المُستعمَرَة، وإنّ العاميّات واللّهجات هي اللّغات الحيّة المَرِنَة، وذات الأداء العالي(46) .وقد بيّن "أ. دوسن" مفتّش التعليم الابتدائي في السنغال العام 1933م المغزى من هذا التوجّه حين كتب قائلا:«(...) اللّغات الإفريقية هي لهجات يتخاطب بها النّاس، فهي لا تُكتب ولا تصلح للدّراسة، فهي ليست لغة حضارة، وتعليمهم بلهجاتهم يحصرهم في محيطهم المحلّي الضيّق ويمنعهم من الالتحاق بركب الحضارة العالمية (...) مع تعدّد اللّهجات في وطن واحد، فإنّ التّعليم بلهجة ما يثير صراعا بين شتّى القبائل، فالفرنسية تكون لغة الوحدة ولغة السّلم ووسيلة لإشعاع الحضارة الفرنسية في المجتمعات المستَعمَرة» . (47) وإذا كان هذا التّحليل يبدو موضوعيّا، وهو تجنيب البلاد الإفريقية الوقوع في هكذا مزالق، فَلِمَ إذن تشجيع اللّهجات في الجزائر(العربية والبربرية)؟ ألا يعني ذلك أنّ على "الأهلي" في الجزائر أن يختار إمّا ثقافة شعبيّة غير عالمة، أو الانقياد لثقافة عالمة غربيّة ماديّة أداتها اللغة الفرنسية؟ ألم يُرد تكريس فكرة افتقار الجزائر لوحدة لغويّة؟ وإلاّ كيف نفسّر هذا التّناقض الصّارخ، فمن جهة يدّعي أنّ اللّهجات هي لغات حيّة مَرِنَة، وذات أداء عال، ومن جهة أخرى، يقول إنّها لا تصلح للدّراسة ولا هي لغة حضارة؟ ونعتقد أنّها كذلك، وهو ما يؤمن به المحتلّ، فعلى سبيل المثال يقول "هوداس" معلّقا على العربية العامية في مقدّمة كتابه قائلا: «(...) إنّ العرب لا يتصرّفون بطريقة مختلفة، وأنّ نظام كتابتهم وطرق تحريرهم، وحتّى جهلهم للقواعد يزيد الأمر تعقيدا (...) ولم يكتف الكتّاب العرب بخربشة الحروف وبخرق القواعد، بل أدخلوا في مراسلاتهم كلمات غريبة استقوها من اللّغة الفرنسية، أو من لغة هجينة "Sabir" ويصعب فهمها

جرّاء هذا التّشويه، حيث أجد مثلا في رسائل كلمة "لانتروز فراص" (أي Naturalisé Français) أو "كترفاويت" (أي Quatre vingt huit)..الخ»(48). ويقول آخر« (...) في دراسة اللّغة الجزائرية، حيث كثرة العبارات غير الصّحيحة وأخطاء القواعد والإملاء ومفردات من أصل أجنبي مثل"كونينير" (Colonel) (...) إنّها " la langue sabir"»(49)

من جهته، يقول "ماشويل" في مقدّمة كتابه: «(...) لقد أقحمنا عددا كبيرا من المفردات الفرنسية المعرّبة، بسبب صعوبة تعريبها بمفردة دقيقة، ونعتقد أنّه من الأفضل أن نحذو حذوهم في استعمالهم لهذه المفردات، كون الأهلي يفهم كلمة "Préfet" و"Télégraphe" بدلا من جمل تستخدم للتعبير عن ذلك»(50).

الخاتمة:

لقد عمل المحتلّ الفرنسي على دعم وتثمين اللّهجات العربيّة، وتشويهها حتّى تتحوّل إلى لهجات هجينة، وتشوّش على الفصحى. وقد وجد فيها سبيلا إلى تهوين الدّين، فغدت اللّهجة العربيّة لغة التّدريس، وبها حُرّرت المحتويات المعرفيّة ذات الطّبيعة الفلكلورية و/أو الثّقافة الشّعبية. وقد استغلّ المحتلّ اللهجات لتحييد العربية الفصحى، إدراكا منه أنّ هذه اللّهجات خاليّة من أيّ مخزون تراثي عميق، أو وزن علمي ذي شأن كبير، أو حُمولة دينيّة ذات مرجعيّة صحيحة ومُوثّقة. ومن النّاحيّة البيداغوجيّة، رأى فيها وسيلة تشويش على الطّفل؛ إذ العاميّة أوّلَ ما يتلقّاه، وأوّلَ ما يفتح عليه عينيه، فيبني منها مقاييسَه اللّغويّةَ الأولى، ممّا يترتّب على ذلكَ ترسُّخ هذه المقاييسِ الهشّة وترسُّبُها في مَلكَته اللّغويّة، حتّى وإن هَمّ - يوما ما- بالأداءِ اللّغويِّ الفصيحِ، اعترَض طريقَه ذلك المخزونِ اللّغويّ المُشوَّه، والذي زاده تشوّها ما طغى على اللّهجات من مفردات أجنبية، وفرنسيّة بالتّحديد. وقد حاول بهذا الصّنيع أن يحرم النّشء، من التّواصل مع تراثه الفكري والحضاري، وقتل روح الانتماء لديه، واعتقد أنّه بإزاحة الفصحى وتكريس اللّهجات التي ليس لها مقوّمات الصّمود، يكون قد مهّد للّغة الفرنسية، لأن تكون لها السّيادة والرّيادة.وبالفعل، استطاع التّمكين للُغَة عاميّة هجينة هي نتاج سيادة اللّغة الفرنسيّة في المجتمع، و التي ما تزال تتربّع على المشهد اللّغوي في الجزائر إلى اليوم.

ولا يعزب عن البال، أنّ سياسة فرنسا في هذا المجال ما تزال قائمة إلى اليوم، فقد بادرت بإدراج ما تسمّيه"العربية الدّارجة" أو"العربية العاميّة" ضمن لغات فرنسا، وكانت قد أدخلت هذه العامية مادّة اختيارية في امتحان شهادة البكالوريا، أي الثانوية العامّة، يُجرى الاختبار فيها شفاهيا، واستمر ذلك إلى يناير 1995، عندئذ جعلت العربية الدارجة مادة كتابية وتركت للتلاميذ الخيار بين كتابتها بالحرف العربي أو كتابتها بالحرف اللاتيني، وأوكلت مهمّة الإشراف عليها إلى المعهد الوطني للغات والحضارات الشّرقية، وكانت على "كرسيّ العربية" فيه الأستاذة الباحثة "دومينيك كوبى" حيث دافعت بحماس فائض على العاميات العربية مستنقصة قدر اللّغة الفصحى. وفي معهد اللغات الشرقية أعيد ترتيب قسم العربية وأصبح مشتملا على فروع أربعة: العربية الفصحى والعربية المصرية والعربية المغاربية والعربية الشرقية.

الإحالات:

[1] عبد السلام المسدي: **العرب والانتحار اللغوي**، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2011. ص، 11.

[2] أنظر : نفوسة زكريا سعيد: **تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر**، ط1، دار نشر الثقافة بالإسكندرية، 1964.

[3] محمد بن شريفة: "**حول معاجم اللغة العامية المغربية** _عرض تاريخي_، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، العدد، 89 ، مارس 1999، ص، 135

[4] نفسه: ص135.

[5] ""بخصوص اللهجة فيطلق عليها عدة مصطلحات، نذكر منها: "دارجة"(لغة شائعة)، و"عامية"(لغة العامة)، و"العربية الجزائرية" أو "العربية اللّهجية". ويذهب إبراهيم أنيس بأنّ اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. وبيئة اللّهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدّة لهجات؛ لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسّر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من

حديث، فهماً يتوافق على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات. وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات، هي التي اصطلح على تسميتها باللغة. فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص. فاللغة تشتمل عادة على عدة لهجات، لكل منها ما يميزها، وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية، والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات" إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ط2، مكتبة الأنجلوالمصرية، القاهرة، 2003، ص 15.

(6) **Gérard** Troupeau, « Deux cents ans d'enseignement de l'arabe à l'école des langues orientales », ***Chroniques yéménites*** 1997, Online since 30 August 2007,

(7) لويس ماتيو لانجلس(1763 - 1824 م) Louis-Mathieu Langlès مستشرق فرنسي، عني خصوصاً بالرحلات في البلاد الإسلامية. وهو مؤسّس مدرسة اللغات الشرقية وأوّل مدير لها، ومحافظ للمخطوطات الشرقية بالمكتبة الملكية في العام 1790م

(8) رماند بيير كوسان دي برسفال(1795- 1871) Armand Pierre Caussin de Perceval مستشرق فرنسي. وهو ابن المستشرق جان جاك أنطوان كوسان دي برسفال. سافر إلى تركيا، واسطنبول ولبنان، وقضى نحو سنة في الوسط الماروني،

(9) بيير جان روفين (1742- 1824) Pierre Jean Ruffin ولد في باريس، وتوفي في اسطنبول، وهو دبلوماسي فرنسي في الفترة ما بين أواخر القرن 18 ومطلع القرن 19م. وشغل منصب قنصل فرنسا بجزيرة القرم واسطنبول، ومترجم للغات الشرقية بوزارة الشؤون الخارجية، وقد تمّ سجنه من طرف سليم الثالث أثناء الحملة على مصر.

(10) louis Bazin, L'Ecole des langues orientales et l'académie des inscriptions et belles- lettres-comptes – rendu des séances de l'académie des inscriptions et belles- lettres- année 1995 volume 139 N° 4 page 983-996.

(11) Id

(12) **Gérard** Troupeau, « Deux cents ans d'enseignement de l'arabe à l'école des langues orientales » op. cit.

(13) سلڤستر ده ساسي (1758م- 1838م)Silvester de Sacy ولد في باريس ، وتعلّم اللاتينية واليونانية، ثم درس على بعض القساوسة، ثمّ درس العربية والفارسية والتركية. عمل في نشر المخطوطات الشرقية في مكتبة باريس الوطنية، وكتب العديد من البحوث حول العرب وآدابهم وحقق عدداً من المخطوطات كما عين أستاذا للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية الحية عام 1795م وأعدّ كتاباً في النحو ترجم إلى الإنجليزية والألمانية والدنمركية، وأصبح مديراً لهذه المدرسة عام 1833م، وعندما تأسست الجمعية الآسيوية انتخب رئيساً لها عام 1822م. ومن أبرز اهتماماته "الدروز" حيث ألف كتاباً حولهم في جزأين، أصبحت فرنسا في عهده قبلة المستشرقين من جميع أنحاء القارة الأوروبية ويقول أحد الباحثين إنّ الاستشراق اصطبغ بالصبغة الفرنسية في عصره، عمل دي ساسي مع الحكومة الفرنسية وهو الذي ترجم البيانات التي نشرت عند احتلال الجزائر وكذلك عند احتلال مصر من قبل حملة نابليون عام 1797م.

(14) ميشال صبّاغ أو ميخائيل صباغ Michel Sabbagh ou Mikhail Sabbagh (1784 - 1816) ناسخ، وكاتب، ومستشرق، وهو فلسطيني، بعد انتهائه من دراسته للآداب، توجّه إلى القاهرة، وعمل مترجما في الجيش الإمبراطوري. وقد استحدث له خصيصا وزير الداخلية الفرنسي منصب ناسخ بالمكتبة الملكية في باريس العام 1807 وله العديد من المؤلفات من بينها: " تاريخ القبائل العربية في الصحراء" و "وتاريخ سوريا ومصر".

(15) شيربونو(جاك أوغست)CHERBONNEAU Jacques **Auguste** (1813-1882) مستشرق فرنسي، ومؤسّس الجمعية الأركيولوجية لقسنطينة، ومدير المدرسة الإمبراطورية العربية/الفرنسية للجزائر العاصمة، ثمّ أستاذ كرسي اللغة العربية لمدينة قسنطينة

(16) أوكتاف هوداس: Octave Houdas (1840– 1916م) هو مستشرق فرنسي. عُني بتاريخ السودان بمعناه الواسع

(17) ماك جوكان دي سلان وشهرته البارُون دي سلان(1801- 1879م) William Mac Guckin, baron de Slane مستشرق فرنسي، من أصل ايرلندي .تتلمذ على دي ساسي، ومن تلاميذه جان فرانسوا شامبليون. من آثاره: نشر ديوان امرئ القيس، وتاريخ ابن خلدون . وفهرس المخطوطات الشرقية الموجودة في خزانة باريس الوطنية.

(18) جوزيف توسان رينو(1795- 1867م) Joseph Toussaint Reinaud مستشرق فرنسي أخذ العربية عن دي ساسي. له تأليف في ميدان الآثار الإسلامية والحروب الصليبية والفيلولوجيا العربية.

(19) هرتفيك ابن يوسف دارنبورغ(1844- 1908 م) Hartwig Derenbourg هـ /) مستشرق فرنسي موسوعي، من آثاره، ديوان النابغة الذبياني» مع تتمة، 1869. »كتاب فيما يلحن فيه العامة»،

(20) louis Bazin, **L'Ecole des langues orientales et l'académie des inscriptions et belles- lettres op. Cit**

(21) Gérard Troupeau, **« Deux cents ans d'enseignement de l'arabe à l'école des langues orientales » op. cit.**

(22) فلوريان كولمارس، **اللغة والاقتصاد**، ترجمة: أحمد عوض، مراجعة: عبد السلام رضوان، سلسة عالم المعرفة، العدد 263، ط1(الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2000

(23) عبد العلي الودغيري، **اللغة والدين والهوية**، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2000، صص88- 89.

(24) عبد السلام المسدي، المرجع السابق، ص، 10.

(25) **Victor, DEMONTES:** Les préventions du général berthezéne contre la colonisation de l'Algérie **Impr Algérienne, 1905, p. 250**

(26)إنّ اللغة ليست ألفاظا أو تعبيرات مجازية وأساليب لافتة لا تحمل في أطرافها فكرة، وإنّما هي ذلك الوعاء الدقيق الصّنع الذي يشتمل على هذه المعرفة، وبقدر تناسقها يكون أثر هذه المعرفة في رقيّ الأمّة ودقّة رؤيتها. وليد محمد مراد: المسار الجديد في علم اللغة العام، ط1، بيروت، مطبعة الكواكب، 1988، ص 25. من جهة أخرى، فـ" اللغة أداة لاغني عنها من جهتين: إنّها وسيلة لإخراج الفكر من حيّز الكتمان إلى حيّز التّصريح، وثانيا فهي عماد التفكير الصّامت، ولولاها لتعذّر على الإنسان أن يسبر الحقائق إلى عمق أعماقها حينما

يسلط عليها أضواء فكره" حنفي بن عيسى: محاضرات في علم النفس اللغوي، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص، 69.

(27) شغل منصب متصرّف مدني في الجزائر في سنة 1836م.

(28) A. COUR: **Notes sur les chaires de langue arabe**..; op. cit, pp. 31-32.

(29) Ibid., pp.33-35

(30) Id.,

(31) Id.,

(32) Ibid, p. 213

(33) L.J BRESNIER: **Principes élémentaires de la langue arabe**-ouvrage théorique et pratique, Alger, Bastide, Libraire-éditeur, 1867, p. I-IV

(34) Dictionnaire Français Berbère, dialecte écrit et parlé par les kabailes de la division d'Alger, ouvrage composé par ordre de M. Le Ministre de la guerre, Paris, imp, Royale,M DCCC XLIV (1844)p. I.

(35) J.M.BOURGET: **L'Algérie jusqu'à la Pénétration Saharienne**, Cahiers Du Centenaire de L'Algérie , 1930. p.21.

(36) CAOM 14H58. Daté, le 01/02/1936.

(37) مصطلح الفرنكوفونية، هو من ابتكار الجغرافي الفرنسي "أونيزيم ركلوس" عام 1871م، وهو مكون من مقطعين فرنكو (من فرنسا) وفوني (من صوت)، ونادراً ما تصادف هذا المصطلح قبل عام 1930م رغم اشتقاقه عام 1871م، إلاّ أنّه أخذ في الانتشار منذ عام 1960م، وقد تمّ انتشاره عام 1962م عندما بدأت فرنسا إحياء النزعة الأدبية الإفريقية لبعض حكامها كالزعيم سنجور، أو حمامي دوري، أو بورقيبة، أو بعض الحكام الآسيويين كالزعيم سيرمانوك. نظر: Xavier, DENIAU: **La francophonie**, presses universitaires de France-que sais-je ? 1983.

(38) RECLUS (Onisime) Un grand destin commence, A. Jordin, Alger, 1917. p.104.

حين خرج المستشرق الألماني "ليتمان" في إحدى زياراته للمغرب إلى البادية وهمّ بالعودة مساء إلى المدينة راح يبحث عن سيّارة أجرة، ولمّا لم يجد ذلك، راح يبحث عن حمار وخاطب من صادفه في الطريق قائلا: " أودّ أن أستأجر حمارا، بودّي أن أكتري حمارا أعود به إلى المدينة..الخ" ، فلم يفهمه أحد، وعاد راجلا إلى ضيفه في وقت متأخّر من الليل. ولمّا روى قصّته وسبب تأخّره قال له صديقه المغربي: " لا يمكن أن يفهمك أحد إن تكلّمت بالفصحى، كان ينبغي أن تقول: " نحب داب" ولمّا عاد هذاالمستشرق إلى بلده كتب يقول: " واحسرتاه على عمر أفنيته في تعلّم لغة لم تمكّنني من ركوب حمار". مولود قاسم نايت بلقاسم: إنيّة وأصالة، مطبعة البعث، الجزائر، 1975، ص، 53.

(39) الحسن مادي: السياسة التعليمية بالمغرب ورهانات المستقبل، منشورات مجلة علوم التربية، المغرب، 2004، ص، 39

(40) R. Gaudefroy, DEMONBYNES: **loeuvre francaise en mattière d'ensiegnemrnt**, paris, S.N,1928, p.119.

(41) COUR: Notes sur les chaires de langue arabe, op, cit, 213.

(42) V. HARVARD: «La France dans l'Afrique du Nord »**R.D.M**,15/06/1912, p. 53.

(43) N. NISHIYAMA Noriyuki : Enseignement du français aux indigènes à la croisée de culture politiques sous la III République . comment la mutation de politique coloniale s'est articulée avec la politique linguistique ! Université de Nigata (Japon) Revue électronique, juillet, 2004.: **L'enseignement** .., op.cit, p. 43.

(44) Leliévre Claude : Jules FERRY «La République éducatrice » Hachette éducaion, 1999, p. 93.

(45) Claude, LELIEVRE: **La République éducatrice..**, op. cit, p.74-75.

(46) لا غرابة في ذلك، فإذ كان القرن 18م، قد شهد اختراع نظرية "المتوحش الطيب" فإنّ القرن 19م تميّز أيضا بابتكار نظرية ملفّقة، هي النظرية الشفهية " Théorie de (l'oralité

(47) Jean- Louis, CALVET: **Linguistique et colonialisme**, payot, 1988. p.299.

(48) O. HOUDAS, et G. DELPHIN: op. cit

(49) Bel-Kassem, BEN SEDIRA: **Cours gradué**..; op.cit.

(50) L. MACHUEL: **Manuel de l'Arabisant..**, op. cit, P. VI.